لماذا تحوّلت حركة ذوي المفقودين إلى حركة نسائية؟

مايا الحلو

بالإمكان وصف تحرّك ذوي المفقودين بأنه تحرك نسائي بإمتياز على ضوء غلبة العنصر النسوي عليه. وهذا التصنيف لا يهدف الى وضع هذا التحرك في قوالب جندرية، بل إلى فهم ديناميته الداخلية والديناميات الإجتماعيّة المنبثقة عنه أو المؤثّرة فيه، في ظلّ نظام طمس الذاكرة الذي انتهجته الدولة اللبنانية والطبقة الحاكمة في التعامل مع الحرب الأهلية ومفقوديها.

فرضيات...

بحديثي مع عدد من نساء الحراك، اتفقن كلهن على أن حضور الرجال كان هاماً في بداية الحراك وخصوصا بين الآباء، لكنه سرعان ما انكفأ لتبقى النساء وحدهن في الميدان. وعند جوجلة إجاباتهن على سؤالي، بدت لي فرضية «أن الرجل يعمل» الأقل اقناعاً. فالعديد منهنّ منخرطات في سوق العمل أو فقدن أزواجهن من دون أن يمنع ذلك أياً منهن من الاستمرار في مسيرة البحث عن المفقودين.

أما الفرضيات الأكثر جدية لشرح هذه الظاهرة، فهي الآتية: أنه في ظل الحرب وطبيعة المناخ السياسي السائد آنذاك، كان لدى النساء قدرةٌ أكبر على التنقّل مما أدّى الى نشوء هذا التحرّك السياسيّ كتحرك نسائيّ واستمر فيما بعد كذلك. وهذا ما تؤكده وداد حلواني، القائدة التاريخية لتحركات ذوي المفقودين، «كانت هناك حالة طوارئ وكان لدينا «كنساء» حرية تحرك أوسع. فمثلاً خطر الإعتقال كان خطر الإعتقال أخف علينا» وتضيف حلواني: «في أحد التحركات ما بعد الحرب، قامت الدولة بوضعنا أمام خيارين: إما فكّ الإعتصام وإما يعتقلون الشباب الموجودين معنا. ففكّينا الاعتصام خوفاً من أن يتم القبض على الشباب وتالياً أن يُضافوا الى قوافل المفقودين». أما الفرضية الأخرى فترتكز على كون المحرك الأساسي لهذا التحرك هو العاطفة. فوفق إحدى عميدات التحرك، «المرأة تترك كل شيء وتأتي للمطالبة بإبنها، «فهي» لن تستسلم مهما مرّ الزمن». وتؤكد ناشطة أخرى «الإبن هو قطعة من روحها» (أي الأم). ويُشار أنه في معظم الحالات، لكلّ حركة سياسية محرّك عاطفيّ. المشكلة تأتي من صبغ التحرك بمحرّكه، أي بكونه عاطفياً، وتحديداً من خلال النظر الى النساء ككائنات عاطفية فقط وتحويل تحركاتهم الى تحركات عاطفية لا تؤخذ على محمل الجدّ عند صوغ السياسات العامة.

السياسة التمثيلية لتحرك المفقودين في الإعلام

في مشهد جدّ مألوف، تجلس سيدات تحرّك المفقودين على الدرج، يحملن في أياديهن صور أولادهن و/أو أزواجهن المفقودين... ويقطع صراخ إحدى النساء هذا المشهد العاطفي: «الله يحرق قلوبكم مثل ما حرقتوا قلوبنا». مشهد الأم الحنون يُقطع بفعل متمرّد ليهاجم الطبقة السياسية الحاكمة مباشرة. وإذ بالإعلام الحاضر لينكبّ على «الأم الحزينة»، وينتهي بالتركيز على حزن الأمهات فقط ونقله دون تمردهن. فقد اعتاد الإعلام على تغطية هذا التحرك من خلال تجييش عاطفي يبني على أساسه رأسماله. وتشير حلاواني أنها «طلبت من إحدى الإعلاميات عدم تضخيم حالة الأم الحزينة وتشجيعها على استنزاف مشاعرها خوفاً عليها من أن تمرض، فأجابتني: «هذا هو المطلوب». وبشهادتها، ذهب القسم الأكبر من الإعلام في اتجاه إستثمار وجع أهالي المفقودين لحصد عدد أكبر من المشاهدين، مع ما يستتبع ذلك لجهة إفراغ التحرُّك من قيمته السيّاسية والاجتماعيّة. فهل يتغير الأمر بعد ولوج ذوي المفقودين الحلبة الحقوقية؟